بطاقة قراءة

إعداد بيير كولونج

«النهب الكبير»

الجزء الثاني - حملة مصر

رواية روبير كازانوفاس

1. البطاقة التعريفية

العنوان : «النهب الكبير — رواية تاريخية في أربعة أجزاء. الجزء الثاني «1798-1801 – حملة مصر

المؤلف : روبير كازانوفاس

النوع : رواية تاريخية ذات نزعة توثيقية ونقدية، تقوم على أبحاث حقيقية

الطبعة : طبعة نهائية منقّحة ومصحَّحة، إيداع قانوني في أبريل 2026، بصيغتين رقمية وورقية

الترقيم الدولي (ISBN) : 978-2-488999-78-6

البنية : تنبيه، ثم أربعة فصول كبرى مقسّمة إلى ثمانية وعشرين قسمًا مرقَّمًا

الحقبة : من مايو 1798 (الإبحار من طولون) إلى خريف 1801 (العودة إلى فرنسا)، مع خاتمة تمتد حتى صدور كتاب «وصف مصر» (1809-1829)

الأماكن الرئيسية : طولون، مالطا، الإسكندرية، القاهرة، الجيزة، سقارة، دندرة، طيبة، وادي الملوك، أسوان، فيلة، رشيد، باريس

السلسلة : «يأتي هذا الجزء تتمةً للجزء الأول («ولادة المنظومة»)، ويندرج في أعمال المؤلف المكرَّسة لنهب الأعمال الفنية («الغرفة المسروقة» و«الوصية كانت مزورة» و«السلب»)

الغلاف : نسخة من حجر رشيد موضوعة داخل مسرح بصري في متحف شامبوليون بفيف (إيزير، فرنسا)، صورة التُقطت في 17 يوليو 2022 (جوليان بيتار)

الموقع المرتبط : www.international-restitutions.org

2. عرض عام

يتتبّع الجزء الثاني من النهب الكبير حملة مصر من زاوية العلماء والرسامين والمهندسين الذين أبحروا مع بونابرت. فهو لا يروي الحملة العسكرية لذاتها، إذ تُعالَج معركتا أبو قير وهليوبوليس في صفحات قليلة أشبه بالتأريخ، وإنما يروي ما يجري في ظلالها. فهيئة من «المفوّضين» والعلماء تصف مصر القديمة وتقيسها وتنسخها وتشتري منها وتقتطع ثم تعبّئها أخيرًا لتنقلها إلى باريس. والخيط الناظم سؤال ترفض الرواية أن تحسمه بكلمة: أين ينتهي الجمع العلمي وأين يبدأ النهب؟

يضع التنبيه الكتابَ تحت راية خيال يستند إلى البحث (انظر الفقرة 6). وتتقدم الرواية من الإسكندرية إلى فيلة، ثم من حجر رشيد إلى استسلام 1801، حيث يطالب الإنجليز بدورهم بما ظن الفرنسيون أنهم أنقذوه. ويتناوب على حمل هذا التساؤل كلٌّ من دونون وجومار وفوريه وجوفروا سانت هيلير، وبعض الشخصيات المتخيَّلة أو القليلة التوثيق، مثل المترجم حسن ووكيل ترعة الجيزة عبد الله بن يوسف.

3. ملخص الفصول فصلًا فصلًا

الفصل الأول — الشرق تحت السلاح

من طولون إلى مالطا. في 19 مايو 1798 يغادر الأسطول طولون. وعلى متنه برتوليه ومونج وجومار وفوريه ودونون. يرى برتوليه في «الحملة العلمية» «عملية استحواذ». وأثناء العبور، على متن لوريان، يؤكد بونابرت أن ما سيؤخذ في مصر «لم يعد له مالك حيّ منذ زمن طويل». فيجيبه برتوليه همسًا بأن ذلك لا يعني أنه لا مالك له. تستسلم مالطا في 12 يونيو. يمنع دونون إنزال لوحة كارافاجيو، لكن لوحات الحامل تُحمل. ومنذ البداية ترسي الرواية قاعدتها. يؤخذ ما يمكن نقله، ثم يُبحث له عن مسوّغ.

من الإسكندرية إلى النيل. في 1 يوليو تخيّب الإسكندرية الآمال، فهي بلدة صغيرة من أكواخ. يقيس جومار عمود بومبي ويرسمه دونون من ثلاث زوايا. ويأمر بونابرت بترجمة بيانه إلى «شعوب مصر» إلى العربية. وابتداءً من 6 يوليو يعبر الجيش الصحراء، تحت أربعين درجة في الظل، قبل أن يبلغ النيل. وفيما بعد، في سوق سقارة، يبيع فلاحون للجنود تماثيل صغيرة وتمائم. ويشتري دونون أوشابتيًّا. ويترجم المترجم حسن كلمات البائع الذي هي عنده «مقبرة جدّه الأعلى». يترجم الكلمات، لكنه لا يترجم النبرة.

معركة الأهرام. أيها الجنود، من علياء هذه الأهرام، أربعون قرنًا تتأملكم»، هكذا يهتف بونابرت بجنوده في 21 يوليو. يوضع العلماء وسط مربعات» المشاة. ويرسم دونون دون أن ينظر من داخل المربع، ثم يرسم الأهرام والقتلى في المقدمة. ينسحب مراد بك وتؤخذ القاهرة في 24 يوليو. وفي صباح اليوم التالي يدخل جومار الهرم الأكبر مع مونج ودونون. فيصادفون جنديًّا شابًّا يحمل جعرانًا. ويستشعر جومار أن هذه الحركة من طبيعة ما .يقومون به هم أنفسهم من استحواذ. الدرجة وحدها تختلف

معركة أبو قير. في 1 أغسطس يدمّر نلسون معظم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ويصبح الجيش أسير مصر. وفي مساء 14 أغسطس، عند بلوغ نبأ الكارثة، يتفقد جومار المجموعات المخزَّنة في ملحقات قصر حسن كاشف الشمالية. فيجد فيها ثلاثة وعشرين صندوقًا بلا بطاقات، لا يعرف أحد محتواها. يدوّنها في يومياته الخاصة ولا يخبر بها أحدًا. وقد صارت العودة غير مؤكدة. وسرعان ما يقدّر جوفروا أن ما سيعود يتوقف على ما .يقوى على السفر

المجمع العلمي المصري. في 22 أغسطس يؤسس بونابرت المجمع العلمي المصري. ويكون مونج رئيسه، وهو الذي يفتتح الجلسة الأولى بهذه الكلمات. «نحن هنا لنفهم يا أصدقائي. لا لنغزو — فغيرنا يتولى ذلك على خير وجه. أطلب منكم ألا تنسوا ذلك أبدًا.» يقيس جومار آثار منف ومعبد بتاح. ويرسم رجل مسنّ في التراب كيف كانت تُجَرّ التماثيل العملاقة. ويشرّح جوفروا سانت هيلير أسماك النيل .وفي مطلع نوفمبر يقدّم برتوليه .حصيلة ثلاثة أشهر من العمل

ثورة القاهرة. في 21 أكتوبر تنتفض القاهرة. تقصف المدفعية الأحياء الثائرة ويستمر القمع ثلاثة أيام. يبقى العلماء متحصنين في المجمع. وفي 24 أكتوبر يخرج دونون ليرسم في الشوارع المدمَّرة. وأمام دكان مبقور البطن يفكر في المفوّضين الذين يملؤون قوائمهم. «الحركة نفسها، مطروحًا منها المعايير والتمييز. هنا يقولون نهبًا، وهناك جمعًا.» يرى دونون مع حسن جنديين يُفرغان دكان نسّاجين تحت نظرة صامتة من صاحبته. ويقول .مونج لبونابرت إن القوة لن تكفي للحكم. «سيكفي الاحتلال. لما أريد أن أفعله»، يجيب بونابرت

أبو الهول والمقابر. في نوفمبر يقود دونون بعثة إلى أبي الهول، ثم إلى سقارة حيث يقيس جومار الهرم المدرّج. ويدرس برتوليه رانتنجات المومياوات ونطرون بحيرات النطرون. وأمام طيور أبي منجل المحنَّطة، المطابقة لطيور اليوم، يذكّر جوفروا بأن كوفييه يرى فيها برهانًا على ثبات الأنواع. أما لامارك فيرى على العكس أن ثلاثة آلاف سنة مدة أقصر من أن يُرى فيها تغيّر. ويخلص برتوليه إلى أن أيًّا منهما لن يستطيع البرهنة .على رأيه. «نحن نأخذ ما نظنه معرفة»، يكتب دونون عن شظية من الغرانيت

المناقشات العلمية. في جلسة 16 نوفمبر يدافع مونج عن القياس ويدافع فورييه عن المعنى. ويحسم بونابرت. يجب الأخذ بالاثنين. ويعرض كلٌّ ،«أعماله. ويشرح فانتور دو باراديس، مترجم الحملة، الفرق بين العربية المحكية وعربية القرآن. «ننقل أولًا، عن ظهر قلب. ويأتي المعنى بعد ذلك يستخلص فورييه. «وسيفتح دونون الطريق»، يعلن بونابرت عن الصعيد. وفي ممر يسأل فورييه دونون إن كان ينوي حمل القطع. فيجيب دونون بأن بعض الأشياء يجب أن تسافر كي تُرى. وفي المساء يحذّر برتوليه بونابرت من أن الرحيل سيتم على عجل، وأنه لن يرحل إلا ما سيكون قد .صار في الصناديق

الفصل الثاني — الصعود في النيل

دندرة. .في 16 ديسمبر 1798 تغادر فرقة ديزيه بني سويف جنوبًا. وقد سلّم بونابرت دونون قائمة من أربع صفحات وحدّد قاعدته. «فرنسا لا تنهب إنها تنتقي وتوثّق وتحفظ. الجنود هم الذين ينهبون.» يصل دونون إلى دندرة في 25 يناير 1799، وسيعود إليها في مايو ليرسم الزوديك على ضوء الشمعة. يرى جومار أن انتزاع الزوديك ممكن لكنه طويل جدًّا («ربما بعد ثلاثين عامًا»). ويكتشف القائمة التي يمسكها الرقيب الأول أوبير، أكثر من ثمانين سطرًا لكتيبة الطليعة وحدها، ويقدّر بنحو مئتين عدد الأغراض التي خرجت من هذا المعبد وحده، وبألفين وخمسمئة، «حدّ أدنى»، ما ،«خرج في الحملة كلها. ويرى فاسور، رياضي اللجنة، وهو يملأ استماراته في فناء المعبد، الرقم «دقيقًا، أو قريبًا من الواقع». «هذا ليس مبررًا .يجيب جومار

طيبة. في 27 يناير تخيّم البعثة قبالة طيبة. وفي الكرنك يدرك جومار أن محور المعبد موجَّه نحو شروق الشمس في الانقلاب الشتوي. ويؤكد فورييه صحة حسابه. وفي الأقصر يسأل ديزيه هل يمكن أخذ المسلّتين. وزن كلٍّ منهما مئتان وثلاثون طنًّا فيُرجأ الأمر إلى وقت لاحق. ويحتفظ دونون لنفسه بوجه أوزيريس من البرونز المذهَّب دون أن يصرّح بذلك. ويقول له رجل مسن، ابن وحفيد حرّاس المعبد، إن الجيوش، في كل مرة، «يأخذون .حجارة». وفي الليل يكتشف جومار تجارة حسن، الذي يقتطع عمولة من كل المبيعات

وادي الملوك. في 29 يناير يقوم جومار بتثليث وادي الملوك. ويلاحظ جوليوا أن العلماء، حين يطلبون من الأدلاء أن يُروهم المقابر، ومعهم جيش .ودفاتر، يسرّعون النهب. ويأخذ دونون في إحدى المقابر بردية من كتاب الموتى، ثم بردية ثانية من يدي جندي. «أخذتُ البردية قبل الجندي»، يدوّن ويكتب جومار في يومياته أن الفرق بين الجمع والنهب يكمن في الوجهة لا في الفعل. وأمام تمثالي ممنون، في اليوم التالي، يلاحظ أن ما لا يمكن .حمله هو وحده الذي يحتفظ بمعناه

أسوان. بين طيبة وكوم أمبو يرى جوليوا جنديًّا يشدّ على بغلته كيسًا يطل منه نقش بارز. وفي 1 فبراير، في كوم أمبو، يتعرف الجرّاح برورييان على أدوات جراحية في جدران المعبد. وفي صباح الرحيل يكسر ضابطا صف بالمطرقة بلاطة من الهيكل. يستدعي ديزيه النقيب لاشيز، ويذكّر بأنه لا

يُمَسّ شيء دون أمر مكتوب، ثم يعترف بأن هذه القواعد غير كافية. وتختفي البلاطة عندما يتحرك الرتل. أما جوليوا فينسخ في مصلّى مجاور نقشًا بالخط المتصل. وفي 2 فبراير يبلغ الرتل أسوان.

فيلة. وخلال فبراير يتوجه دونون، برفقة حسن، إلى فيلة في فلوكة. وكان بوسع دونون أن يأمر بتفكيك بعض كتل كشك تراجان. لكنه يتخلى عن ذلك، لا عن تحرّج، بل لأنه يرفض تدمير ما يمسّه. وبعد مغادرة أسوان في 25 فبراير يستغرق دونون تسعة أيام للوصول إلى أرمنت. يتقاتل جنود على تمثال صغير، ولا يرفع الفلاحون حاجزهم إلا مقابل خمسة وثلاثين قرشًا. وفي أرمنت يشتري دونون بخمسة قروش قطعة مقتطعة حديثًا من الجدار. ثم يعود إلى القاهرة، لكن بونابرت، الذي عاد من سوريا في منتصف يونيو، كان قد غادر المدينة نحو الساحل.

حجر رشيد. في 15 يوليو 1799 يعثر الملازم بوشار قرب رشيد على لوح من الغرانوديوريت الأسود مغطى بثلاث كتابات. ويقرؤه مارسيل وريج النص اليوناني مرسوم تكريمًا لبطليموس الخامس. ويصنع مارسيل كثيرًا من الطبعات ويرسل بعضها إلى أوروبا. وفي 9 أغسطس يقارن الإشارات اليونانية إلى «بطليموس» بالخراطيش ويفترض أن الخرطوش اسم علم. «وجدتم مفتاح مصر القديمة بنص عن الضرائب. هذا يعجبني»، يلخّص كليبر.

مفاوضات ونصر ومقتل كليبر. في 18 أغسطس يغادر بونابرت مصر سرًّا مع دونون ومونج وبرتوليه. ويتولى كليبر القيادة. يحصي جومار ستة وتسعين صندوقًا، أي ثلاثة وسبعين رسميًّا وثلاثة وعشرين لا تزال بلا بطاقات. وتنص اتفاقية العريش الموقَّعة في 24 يناير 1800 على الإجلاء مع المجموعات. لكن في مارس 1800 يرفض الأدميرال كيث المصادقة عليها، ويعيد جومار عدّ الصناديق. فيجد ثلاثة وثلاثين صندوقًا ناقصة ولا يبقى منها سوى ثلاثة وستين. يهزم كليبر العثمانيين في هليوبوليس في 20 مارس. ويُغتال في 14 يونيو 1800. ويخلفه مينو.

الفصل الثالث — زمن العلماء

الحملات الأخيرة. يتولى مينو القيادة ولا يغيّر شيئًا في أعمال المجمع. وفي جلسة يونيو يدافع جومار عن الوثيقة في مقابل الأثر. ويؤكد أنه ينبغي «أن نستبدل بالأثر وثيقة أقدر على السفر». وفي 25 يونيو 1800 تنطلق بعثة إلى تانيس وبوباستيس. ويأخذ جوفروا منها ست مومياوات قطط. ويدسّ جوليوا في حقيبته تابوتًا صغيرًا برونزيًّا لقط. وفي الخريف ينسخ في ثلاثة أيام سِفر مزامير كان الرهبان الأقباط يرفضون بيعه.

الدلتا والمدينة. يبلغ القاهرة في مطلع أكتوبر نبأ موت ديزيه في مارينغو في 14 يونيو 1800. ويحتفظ جوليوا بسكين الجيب التي أعارها إياه ديزيه في ديسمبر 1798 والتي لم يردّها قط. وفي الدلتا، في سايس وبوتو، لا شيء يُحمل، لأن الكتل صارت في جدران بيوت الفلاحين. ويريد مينو توجيه الأعمال نحو مصر الإسلامية، ويُتوصل إلى حل وسط. وفي صباح يوم من نوفمبر يرى جوليوا جنديًّا يأخذ في خمس عشرة ثانية تمثال إيزيس من البرونز من كوّة بيت قبطي. ولا يسعه إلا أن يرسم الكوّة الفارغة.

الزراعة والري. خلال شتاء 1800-1801 يعرض كونتيه على المجمع تقنيات الري المصرية. يلتقي جوليوا عبد الله بن يوسف، المسؤول عن ترعة الجيزة منذ ست عشرة سنة، ويعود باثنين وسبعين كيسًا من الطمي. «أراضيهم، وتماثيلهم... الأمر سيّان. نأخذ ما يهمّنا ونسمّيه علمًا»، يلاحظ كونتيه. فيجيب جوليوا بأنه يمكن أخذ الطمي دون إفقار حقل، لكن النيل لا يعيد التماثيل. ويقول عبد الله إن الكتابة لا تحل محل ألف سنة من الممارسة. ويريه أربع كتل منقوشة عُثر عليها أثناء تطهير الترعة. فيرسمها جوليوا ويحمل أصغرها.

الوقت الذي يضيق. في 8 مارس 1801 ينزل ستة عشر ألف بريطاني في أبو قير. وتقرر اللجنة نسخ كل شيء لإنقاذ أعمالها. يمسك مارسيل سجلًّا بمشترياته. ويصنع جوليوا نقولًا. وينسخ جومار أحدث قياساته الطبوغرافية في تسعة أيام، ويرسم جوفروا أنواعه. وفي النقاش الأخلاقي في أبريل يميّز جومار ثلاثة أنواع من الأشياء، منها ما أُخذ من المقابر والمعابد. «تلك كانت ملكًا لمصر. وقد أخذناها.» «وسنحتفظ بها. وسننشر»، يختم جوليوا، ويقرّ فورييه بأنه لولا النشر لما كان لشيء مما فعلوه ما يبرّره. وفي 20 يونيو يحصي جوليوا 2 087 رسمًا.

هزيمة القاهرة. في 27 يونيو 1801 يتفاوض بيليار على استسلام القاهرة. وتترك الاتفاقية للجيش أن يخرج «بسلاحه وأمتعته»، دون أن تقول شيئًا «عن المجموعات. أما البند الذي سيهددها حقًّا، وهو المادة السادسة عشرة، فلن يُوقَّع إلا في سبتمبر بالإسكندرية. ويرى فورييه أن كلمة «أمتعة»، غامضة ويبحث عما لا تشمله. وفي 30 يونيو يبيع التاجر سليمان القباني لمارسيل اثنين وعشرين أوشابتيًّا وخمسة جعارين وثلاث تمائم ذهبية يدرجها مارسيل في جرده الشخصي. ويهدد جوفروا بإحراق مجموعاته إن صودرت. «سيأخذون الأصول. ونحن، النسخ. والنسخ... هي الغنيمة الحقيقية»، يلخّص فورييه. ويتم الرحيل في منتصف يوليو، بعد سبعة عشر يومًا من الاتفاقية.

النزول إلى رشيد. يغادر القاهرة ثلاثة عشر ألف جندي، منهم خمسة آلاف مرضى أو متعافون، ومعهم مئتا مدني والعلماء، بقيادة الجنرال داماس. وفي اليوم الأول تطالب دورية عثمانية بالصناديق باسم مصر، فيبعدها داماس. ويسرّ جندي هارب من ليون، مكبَّل بالقيود، إلى جوفروا بأنه لا يريد أن يرى ما سيحدث مع الإنجليز. وفي اليوم السادس تهبّ عاصفة رملية على الرتل، وفي السابع يصادفون لاجئين أقباطًا. وفي اليوم الحادي عشر يريد ضابطان بريطانيان تفتيش الأمتعة، فيرفض داماس. ويبلغ الرتل رشيد في أواخر يوليو، بعد اثني عشر يومًا من المسير، ومعه ثلاثة وستون صندوقًا. ثم يتوجه العلماء إلى الإسكندرية بحرًا.

الآثار الكبرى. في 3 سبتمبر 1801 يحضر هاميلتون وكلارك لتسلّم المجموعات. ويعدّ كلارك الصناديق الثلاثة والستين. وفي 4 سبتمبر تُسجَّل الآثار الكبرى في السجل. وهي تابوت نختنبو الثاني، وتمثال الكاهن الأعظم لآمون، وقبضة ضخمة، ولوحات. أما حجر رشيد، الذي تعذّر العثور عليه، فيُسجَّل بصفة مؤقتة، ثم يُعثر عليه في المساء نفسه بين أمتعة مينو. ولا ينازع فوريه في هذا الحق. بل يطلب فحسب أن يحفظ التاريخ أن اللجنة هي التي اكتشفت هذه القطع. ويدرك جوليوا أن بريطانيا تفعل هنا ما فعلته فرنسا في إيطاليا. فالسلسلة طويلة.

المجموعات التي أُنقذت. تُعتبر الأدوات العلمية ملكية شخصية. وفي 9 سبتمبر، حين يتقدم كلارك نحو مجموعات جوفروا، يهدد هذا بإضرام النار في صناديقه. فيتراجع كلارك. ويقبل هاميلتون بأن تنشر اللجنة رسومها، بشرط إرسال نسخة منها إلى المتحف البريطاني. وتُقتسم الآثار الصغيرة مناصفة. يحتفظ الفرنسيون ببعض مومياوات الحيوانات ومومياء بشرية واحدة، ويحتفظ البريطانيون بأفضل المومياوات الملكية أو النبيلة. ويحتفظ مارسيل بطبعاته. ويحتفظ جوليوا برسومه، وتبقى العملات للعلماء ما عدا خمس عشرة قطعة تقريبًا.

أخلاقيات السلب. في 18 سبتمبر يأتي هاميلتون إلى العشاء وحده ويعلن أن تابوت نختنبو سيرحل في اليوم التالي. فيجيب جوليوا بأن مصريًّا سيضطر بعد مئة عام إلى الذهاب إلى لندن لرؤيته. ويذكّر جوفروا بأن مصر ليست هي التي دعتهم. ويسأل فوريه ماذا سيجيب المتحف البريطاني لو طالبت مصر يومًا بممتلكاتها. «لا أستطيع أن ألزم القرن المقبل»، يجيب هاميلتون.
في 22 سبتمبر يطالب التاجر محمود الطويل بثمانية تماثيل صغيرة يقول إنها سُرقت منه. يرفض هاميلتون ردّها، ولا يطلب التاجر سوى أن يُسجَّل اسمه. ويُوقَّع المحضر في المساء نفسه.

الوداع. تُخصَّص الأيام الأخيرة من سبتمبر للتعبئة. ينهي جوليوا فهرس 2 087 رسمًا من رسومه، وتُختم الصناديق في 27 سبتمبر. وفي 31 أكتوبر يتلقى العلماء أمر الصعود إلى السفينة، ويسلّم هاميلتون تصاريح المرور إلى جوليوا قائلًا. «وأتمنى لكم أن تحسنوا استعمال ما تحملونه معكم.» ولن يلتقيا بعد ذلك أبدًا. وفي 1 نوفمبر يودّع جوليوا شيخًا من الإسكندرية، ثم يبدأ الصعود إلى السفينة. ويبقي أنابيبه النحاسية في مقصورته فوق سريره.

العبور. يكون البحر مضطربًا في الأيام الأولى. ويلاحظ جومار أن قواعد الأهرام الكبرى أطول قليلًا من الشرق إلى الغرب منها من الشمال إلى الجنوب. ويرى أن البنّائين كانوا يراعون قياس الأرض. وتُحمّسه هذه الفرضية بقدر ما تُرعبه، لأنها تفترض علمًا ضائعًا. ويمزق فوريه أحد عشر مطلعًا لمقدمته قبل أن يبدأ بالنيل. وترسو السفينة في فاليتا في 10 نوفمبر، حيث يرفرف العلم البريطاني. وتظهر فرنسا في 17 نوفمبر.

العودة إلى فرنسا. في 19 نوفمبر 1801 ترسو السفينة في مرفأ طولون، بعد ثلاث سنوات وستة أشهر من الإبحار. وتُعامَل صناديق اللجنة كأنها شحنة دقيق. يحرر فوريه التقرير الرسمي ولا يذكر الخسائر إلا في هامش ملحق. وفي باريس، في 8 ديسمبر، لا موكب ولا حفل استقبال. وفي 15 ديسمبر يستقبل بونابرت فوريه في التويلري، ويجعل من «الوصف» مشروعًا للدولة. وتُعيَّن لجنة تحرير في فبراير 1802، ويصبح كونتيه مفوضها العام، ويحتفظ فوريه لنفسه بالمقدمة التاريخية. ويُعيَّن دونون في نوفمبر 1802 مديرًا عامًّا للمتحف المركزي للفنون. ومات نحو ثلاثين عضوًا من اللجنة في مصر.

بدء العمل. بعد عام من عودته ينقل جومار قياساته في غرفته بشارع لا كروا فوبان. ويبدو أن «وصف مصر» سيكون ضخمًا، بـ894 لوحة ونحو أربعمئة نقّاش وثلاثة وعشرين مجلدًا صدرت بين 1809 و1829. ويلخّص الراوي الحصيلة في جملة. «التماثيل كانت في لندن. والمعرفة كانت في باريس.» يشطب فوريه الجمل الغنائية من شروح جوليوا، فيعيدها هذا. ويتركان النبرتين تتعايشان. وفي 31 ديسمبر 1802 ينظر جوليوا إلى أنابيبه النحاسية الثلاثة والعشرين، ويخرج لرؤية الجبار في الشارع، ثم يعود ليستأنف شرحه عن الكرنك. ويختتم الجزء الثاني بالتهديد الذي تحمله الحملات المقبلة. وبالنسبة إلى دونون، في اللوفر، «لم يكن العمل قد بدأ إلا للتو...»

4. الشخصيات الرئيسية

دومينيك فيفان دونون *(رسام، ومدير المتاحف مستقبلًا)*

هو المنظور المركزي في النصف الأول من الرواية. يرسم الأهرام والقتلى في المقدمة، وينقذ لوحة كارافاجيو من مالطا، ويأخذ بردية وادي الملوك ويغادر مصر في أغسطس 1799 مع بونابرت.

نابليون بونابرت *(القائد العام)*

شخصية بعيدة وحاسمة في آن واحد. يسلّم دونون قائمة من أربع صفحات، ويصوغ «المستويات الثلاثة» للشرعية (انظر الفقرة 5). ويغادر مصر سرًّا في 18 أغسطس 1799.

غاسبار مونج *(رياضي)*

رئيس المجمع العلمي المصري. يدافع عن القياس في مقابل المعنى الذي يطالب به فوريه.

كلود لويس برتوليه *(كيميائي)*

.يسمّي الحملة «عملية استحواذ». ويدرس راتنجات التحنيط والنطرون والتوازنات الكيميائية

جان باتيست فوربيه *(رياضي)*

.صوت المعنى والتركيب. ينظّم النسخ المنهجي للأعمال ويكتب مقدمة «الوصف». ويموت عام 1830

إدم فرانسوا جومار *(مهندس جغرافي)*

.يلاحظ ويقيس ويحسب. ويدافع عن فرضية الخراطيش وعن الجيوديسيا الخاصة بالآثار

بروسبر جوليوا *(مهندس)*

.مهندس اللجنة ورسّامها. ينسخ ويصنع نسخًا شفافة، ويدافع في عام 1801 عن دفاتره ورسومه في وجه البريطانيين

إتيان جوفروا سانت هيلير *(عالم طبيعة)*

.المدافع عن المجموعات الحيوانية. وتهديده بإحراق عيناته في وجه البريطانيين من أقوى لحظات الرواية

جان جوزيف مارسيل *(مستشرق)*

.صاحب الطبعات لحجر رشيد وسجلٍّ من 162 قيدًا. يحتفظ بالأثر حين تُصادَر الأشياء

لويس ديزيه *(جنرال)*

.فاتح الصعيد، يقود الرتل نحو الجنوب. ويموت في مارينغو

جان باتيست كليبر *(جنرال)*

.خليفة بونابرت. يُغتال في القاهرة في 14 يونيو 1800 على يد سليمان الحلبي

فاسور (رياضي اللجنة)

.في دندرة يملأ استمارات الاقتناء الرسمي في العراء، وهذا ما يميّز الجمع من نهب الجنود. ويبقى جومار متشككًا

نيكولا جاك كونتيه *(مهندس ومخترع)*

.يعرض على المجمع الهيدروليكا المصرية. ويموت عام 1805

حسن *(مترجم)*

.مترجم من القاهرة. يترجم، ويقتطع عمولة من المبيعات، ويرى دون أن يقدر على الفعل. وكثير من الأقوال المصرية في الرواية تمرّ عبره

عبد الله بن يوسف *(وكيل ترعة الجيزة)*

.حامل معرفة الري، يذكّر بأن الكتابة لا تحل محل التجربة

ويليام ريتشارد هاميلتون وإدوارد دانيال كلارك *(هاميلتون مفوض بريطاني، وكلارك عالم آثار)*

.يطالبان بالآثار الكبرى في عام 1801 محتجَّين بالمادة 16 من اتفاقية الاستسلام

مينو *(جنرال)*

.القائد بعد كليبر، اعتنق الإسلام، ويسيطر على الإسكندرية حتى استسلام 1801

أوبير، ومحمود الطويل، وسليمان القباني، والهارب من ليون *(شخصيات متخيَّلة أو قليلة التوثيق)*

.شخصيات لا يثبت النص جذورها التاريخية. وهي تقوم مقام صوت لما تسكت عنه المصادر

5. المحاور الرئيسية

الجمع والنهب، فرق في الاسم لا في الحركة

الجزء الثاني كله قائم على الفكرة التي يصوغها دونون أثناء ثورة القاهرة. الحركة واحدة، والاسم وحده يتغير. أما التمييز الذي يدّعيه بونابرت .(الجنود ينهبون وفرنسا تنتقي) فيُستعاد ويُناقَش ويُمتحَن بالوقائع

المستويات الثلاثة للشرعية

قائمة بونابرت ذات الصفحات الأربع، وتراخيص العلماء، ثم العجز أمام الجنود، تشكّل سُلَّمًا من المسوّغات المتتالية. فما يظن العالِم أنه ينقذه يأمر به الجنرال ويحمله الجندي.

الوزن يقرر ما يرحل

تختزل الرواية خيارات التراث في مسائل حمل. فما ينتقل هو ما يمكن نقله. والوزن، أكثر من القيمة، هو الذي يحدد ما يغادر مصر.

الشيء والمعلومة

أمام الخسارة يضاعف العلماء النُّسخ والرسوم والنسخ الشفافة والطبعات. وينزلق النصف الثاني من الجزء الثاني من الرواية من اقتطاع الأشياء إلى التقاط المعرفة.

المعرفة المحلية والمعرفة العالِمة

يتعلم المهندس الفرنسي من الوكيل أن الكتابة لا تحل محل الحركة. وتُظهر الرواية العلماء معتمدين على معرفة يزعمون أنهم يكتفون بجمعها.

العلم في خدمة الاحتلال

المجمع والورشات والخرائط. العلم إحدى أدوات الحضور الفرنسي. والكتاب لا يندد به لكنه يُظهر أنه يخدم.

المصريون بلا صوت

الكلام المصري، الذي يتوسطه المترجم في الغالب، نادر في الرواية. وهذا الصمت موضوع أيضًا، فأصحاب التراث لا يجلسون في اللجان.

المنهوبون الناهبون

يُظهر الفصل الأخير البريطانيين وهم يأخذون بدورهم ما أخذه الفرنسيون. فمنطق الغزو لا يتوقف عند أمة بعينها.

6. الجزء الموثَّق والجزء المتخيَّل

يقوم الإطار الحدثي على وقائع ثابتة، منها معركة أبو قير، وتأسيس المجمع العلمي المصري، واكتشاف حجر رشيد، واغتيال كليبر، والنصر في هليوبوليس، والمادة 16 من اتفاقية استسلام الإسكندرية، والمواجهة مع هاميلتون وكلارك، وتهديد جوفروا سانت هيلير، وتعيين دونون مديرًا للمتاحف، وصدور «وصف مصر». أما الشخصيات والمشاهد والحوارات فقد يكون بعضها متخيَّلًا، كما يوضح التنبيه.

تبقى منطقة غامضة. فالصناديق الثلاثة والعشرون التي بلا بطاقات، والتي لمحها جومار بعد أبو قير، لا تُوضَّح أبدًا وتظل لغزًا. وقد أُشير إلى الجذور التاريخية للشخصيات المتخيَّلة أو القليلة التوثيق في الفقرة 4.

7. اقتباسات بارزة

«ما كان بونابرت يسمّيه حملة علمية، كان برتوليه يسمّيه في مذكّراته الخاصة، وبدقة أكبر، عملية استحواذ.»

«الحركة نفسها، مطروحًا منها المعايير والتمييز. هنا يقولون نهبًا، وهناك جمعًا.»

«التمييز بين الجمع والنهب تمييزٌ في الوجهة لا في الفعل. نحن نجمع لباريس. وهم ينهبون لأنفسهم. ووادي الملوك لا يفرّق بين الأمرين.»

«لا القيمة. ولا الأهمية التاريخية. بل الوزن.»

«سيأخذون الأصول. ونحن، النسخ. والنسخ... هي الغنيمة الحقيقية.»

«لن أكون أنا من يجيب. سيكون شخصًا آخر، في ظروف أخرى. لا أستطيع أن ألزم القرن المقبل.»

«التماثيل كانت في لندن. والمعرفة كانت في باريس.»

8. التحليل النقدي

نقاط القوة

- أطروحة واضحة ومتماسكة من أول الرواية إلى آخرها. والتمييز بين الجمع والنهب يُمتحَن بالوقائع.
- مادة تاريخية كثيفة، تُقدَّم عبر وقائع ملموسة (وادي الملوك، رشيد، تهديد جوفروا).
- مشاهد قوية، منها مالطا، وليلة الجيزة، وعشاء هاميلتون، وتهديد القدّاحة.
- نبرة متزنة. فالرواية تعرض أكثر مما تدين، وتترك للقارئ أن يحكم.

الحدود ونقاط الانتباه

- تُصاغ الأطروحة على لسان شخصيات كثيرة، فتغدو شديدة الوضوح لكنها تولّد تكرارًا.
- تُختزل حملة سوريا في بضع جمل متفرقة. والاختيار مفهوم، لكن الحذف فجائي.
- يتوسط المترجم في الغالب بين القارئ والمصريين. والأسلوب دالّ، لكنه يُبقيهم في مرتبة ثانوية.
- الفصل الرابع مثقل بالحوارات الشارحة، التي تعلن الحصيلة الأخلاقية أكثر مما تجعلها محسوسة.
- ينتقل مركز الثقل من دونون إلى جومار وجوليوا وفوريبيه بعد أغسطس 1799 (ولا يعود دونون إلى الظهور إلا قرب النهاية، مع تعيينه على رأس المتاحف)، مما يُضعف توازن النصف الثاني.

9. الخاتمة

الجزء الثاني من النهب الكبير رواية جردٍ أخلاقي. يتتبع مصر العلماء ليُظهر أن الجمع والنهب يختلفان في الوجهة أكثر مما يختلفان في الحركة وهو مبني حول أطروحة حاضرة بقوة وتحوّلٍ في الإيقاع في نصفه الثاني، ويسندها بمشاهد ملموسة وكتابة رصينة. ودرسه الأخير هو أشدّ الدروس إرباكًا. فما أخذته فرنسا يأخذه البريطانيون منها بدورهم، والمصريون لا يطلبون سوى أن يُسجَّل اسمهم.

التحليل الأسلوبي

إعداد بيير كولونج

«النهب الكبير»

الجزء الثاني - حملة مصر

رواية روبير كازانوفاس

مقدمة منهجية

تتناول هذه الدراسة الجزء الثاني من النهب الكبير («1798-1801 – حملة مصر»). وهي تقتصر على هذا الجزء، فلا تصح الملاحظات المتعلقة بالسلسلة إلا عليه. وفيها تُقرأ اللغة والبناء السردي والصور الأسلوبية والسجلات والنبرة في رواية تضع شكلها في خدمة سؤال أخلاقي. وتقوم التحليلات المعجمية والنحوية على قراءة النص كاملًا، تكمّلها بعض الإحصاءات التي لا تُقدَّم أرقامها القليلة إلا على سبيل رتبة المقدار. وقد روجعت الاقتباسات كلها في النص وأُعيدت إلى فصولها.

تختار الرواية كتابة تحقيق لا كتابة بوح، قوامها جمل قصيرة وأرقام وقوائم وحِكَم. ويُعامَل القارئ فيها شاهدًا لا متفرجًا، وهذا ما يفسّر المكانة الممنوحة للجرد والوثيقة.

1. رواية متعددة البؤر — تناوب الأنظار

ليس للحكاية بطل واحد. يهيمن نظر دونون على النصف الأول. وبعد رحيله في أغسطس 1799 يتسلّم جومار وجوليوا ومارسيل وفورييه الراية، ولا يعود دونون إلا قرب النهاية. ويتيح هذا التحول في البؤرة للرواية أن تنتقل من الرؤية إلى القياس، ثم من القياس إلى النسخ.

يكمّل الراوي، من خارج وعي الشخصية، نظرَها بما تجهله (والتركيب المستعمل لذلك مدروس في القسم 5). والأثر مزدوج. فهو يمنح المشاهد سخرية، ويذكّر بأن منظور العلماء ناقص.

> *«ستموت على متن سفينة.»*

الفصل الأول، القسم 1 — دونون أمام كارافاجيو، في مالطا.

2. الجرد شكلًا — أرقام وقياسات وقوائم

تجعل الرواية من الأعداد مادة أدبية. فالصناديق تنتقل من 96 إلى 63، وتُقرأ الخسارة في التناقص. وتقدير جومار في دندرة (نحو 200 غرض لهذا المعبد وحده، ثم 2 500 للحملة، «حدّ أدنى») وسجلات مارسيل (162 قيدًا) ترسي توترًا بالمحاسبة وحدها. فالتشويق ليس تشويق حبكة بل تشويق حصيلة.

تمنح هذه الكتابة القارئَ إحساسًا بالوزن الحقيقي للأشياء، وفق القانون الذي تعلنه الرواية بنفسها. فليست القيمة هي التي تقرر ما يرحل، بل الوزن.

3. نظامان لغويان — الاستمارة والمحسوس

يتناوب النص بين نظام إداري (قوائم واستمارات ومحاضر وبنود) ونظام حسّي (ضوء وحجر وأيدٍ وليل). الأول جاف ويفرض سلطته. والثاني يمنح القارئ ما فقده في الاستمارة. والتباين وسيلة، لأنه يُظهر ما تحذفه الإجراءات.

مشاهد النسخ والقياس والرسم هي المواضع التي يلتقي فيها النظامان. وهناك تبلغ اللغة أعلى مردودها.

4. التحليل المعجمي — كلمات وسجلات وصور

فعل محوري. أخذ» أثقل أفعال الجزء حمولةً. يستعمله الجميع. فورييه «تناول القلم»، وكلارك «كُلِّف بتسلّم المخطوطات العربية»، وحسن «كان» يأخذ حصته في الطريق». ومعنى الاستيلاء لا يكمن في الفعل، الذي يبقى هو نفسه في الأصل الفرنسي، بل فيمن يتكلم. و«أخذ» هي الكلمة العامة

التي تندرج تحتها الكلمات التي تقابل بينها الرواية، النهب من جهة، والجمع والانتقاء والاقتطاع من جهة أخرى. ويستخلص كونتيه النتيجة أمام جوليوا.

«أراضيهم، وتماثيلهم... قال. الأمر سيّان. نأخذ ما يهمّنا ونسمّيه علمًا.»

الفصل الثالث، القسم 3 — كونتيه، إلى جوليوا.

التلطيف وصراع الأسماء. تُظهر الرواية كلمات تتناوب على قول الحركة نفسها. فكلمة «لصّ» تُطلق في الغالب على الغير، على لصوص العصور القديمة («كان اللصوص قد عملوا من قبل»)، وعلى الفلاحين والجنود. أما العلماء فلا يطلقونها على أنفسهم إلا في الكلام أو الكتابة الخاصة، كما «يفعل دونون في يومياته («ما الفرق بين لصّ وعالِم في دهليز مظلم»). ولكل لحظة تلطيفها. فـ«الاقتطاع» كلمة المختبر والورشة، و«المصادرة كلمة الفصل الرابع، حين يطبّق البريطانيون بندًا. ويلخّص برتوليه هذا الصراع («ما كان بونابرت يسمّيه حملة علمية، كان برتوليه يسمّيه في مذكّراته الخاصة، وبدقة أكبر، عملية استحواذ»)، حيث يقدّم الظرف «بدقة أكبر» روايته بوصفها تصحيحًا. أما الكلمة الصحيحة، «مسروق»، فلا تأتي إلا في النهاية، بتأكيد من الراوي («ما سرقته — وكانت الكلمة دقيقة مهما كان التبرير — كان في لندن»).

من الرسم إلى الصندوق. يحكي المعجم حركة الجزء. فأفعال النظر والخط (نظر، رسم، قاس) تهيمن على الفصول الأولى، بينما تغزو كلمات التعبئة والتسليم (صندوق، مجموعة، سجل، مصادرة) الفصول الأخيرة. وكذلك يخلي معجم السلاح مكانه لمعجم الخبراء والمفوّضين والإجراءات حين يحين وقت تقديم الحساب. وهكذا تنتقل الرواية من النظر إلى المحاسبة، ويحمل المعجم أثر ذلك قبل أن تقوله الحكاية.

أربعة سجلات. السجل الإداري («اتفاقية» و«المادة السادسة عشرة» و«تصاريح المرور» و«المحضر» و«بصفة مؤقتة») جاف ويفرض سلطته وهو يحب الكلمات الواسعة جدًّا، مثل «بسلاحه و أمتعته» في اتفاقية الاستسلام، وهي عامة بما يكفي ليضع كل معسكر فيها ما يشاء. والسجل النُّصبي هو سجل بونابرت أمام الجنود («أيها الجنود، من علياء هذه الأهرام، أربعون قرنًا تتأملكم»)، حيث يُشخَّص الزمن متفرجًا. والسجل المألوف الساخر هو سجل مونج («نحن هنا لنفهم يا أصدقائي. لا لنغزو — فغيرنا يتولى ذلك على خير وجه.») وكلبير، الذي يختم أمام حجر رشيد بعبارة «هذا يعجبني» ذات الشفوية الصريحة. وأخيرًا يهيمن سجل التأريخ على المعارك، بجمل قصيرة وتواريخ ووقائع. وتتميز الشخصيات بالسجل أكثر مما تتميز بالتركيب.

الدقة والحذر. الرصيد المعجمي ملموس («صندوق» و«يد» و«حجر» و«دفتر»)، والمصطلحات التقنية («الغرانوديوريت» و«النطرون») نادرة وموضوعة حيث يفرضها الشيء. وتُكتب الكميات في الأغلب بالحروف («كتلة واحدة ارتفاعها عشرون مترًا ونصف المتر، ووزنها قرابة ثلاثمئة طن»)، مما يجعل العدد كلمة كسائر الكلمات ويدخله في إيقاع الجملة. ويُعبَّر عن الشك بمعجم الدقة، كما في مذكرة جومار («رتبة المقدار ألفان وخمسمئة غرض. حدّ أدنى. غير قابل للتحقق.»). وتكاد تنعدم صفات التقدير، وتمرّ العاطفة عبر الأفعال لا عبر النعت.

صور الكلمات. «لا تكثر الرواية من الاستعارة. وحين تأتي تكون بصرية ورصينة، كما في قطع اللفائف «مشتتة على الأرض الكلسية كأنها ثلج بني ،وهي تفضّل ألعاب المعنى والصوت. فـ«الأثر» و«الوثيقة» («لنستبدل بالأثر وثيقة أقدر على السفر») يتعارضان لأن الأثر ثابت والوثيقة تسافر وهما في الأصل الفرنسي متقاربان في الجرس. و«العمود» يدل على رتل الجند المسير، وعلى عمود المعبد، وعلى عمود الأرقام، مما يتيح لكوستاز ،أن يقلّب الأوراق «وإصبعه على عمود الأوزان، كما يُقرأ كشف حصيلة نهب». و«اللجنة» تنتقل من المؤسسة العلمية إلى المفوّضين البريطانيين وتنتقل الشرعية معها. أما العكس والتبديل، الخفيّ جدًّا، فيقابل بين نعتيه («الأرض المصرية في أكياس من القماش الفرنسي»)، حتى يتبادل الأصل والوعاء جنسيتيهما.

5. التركيب وصور الجملة والنبرة — جملة العلماء والجنود

،يقوم تركيب الجزء الثاني على الإيجاز والحذف والغياب شبه التام لأدوات الربط المنطقي. وهو ينتج نبرة رصينة متحفظة، ساخرة عن طيب خاطر .هي توقيع الكتاب

جملة الدفتر. ،كثير من جمل السرد لا فعل مصرَّفًا فيها. إنها شذرات تحاكي طريقة الدفاتر، قياس («خمسة وسبعون مترًا.»)، وحال («تيار معتدل.») وشك («أو ربما لا شيء.»)، وقرار («مقرَّر عدم الأخذ.»). والمثال الأخير اسم مفعول بلا فاعل. فيتوارى صاحب القرار، ويُدوَّن قرار الامتناع .كمعطى بين المعطيات. وهكذا يكتب الراوي والشخصيات بالسجل نفسه، سجل التقييد

التراكم وحذف الرابط. أطول الجمل تعدادات أو تكديس لجمل الصلة. إنها لا تُخضِع بل تضيف. فالجملة التي تقدّم المترجم فانتور دو باراديس تسرد ثلاث جمل صلة، آخرها ينفتح على المستقبل («يقضي نهاره في الترجمة لبونابرت وليله في كتابة قاموس عربي-فرنسي لن ينهيه أبدًا»)، وتناظرها بين النهار والليل يمنح حياة المترجم شكل عقوبة. وفي الفصل الثاني تُمرّر جملة طويلة أشياء سوق في مجموعات اسمية بسيطة («أوشابتي من الخشب الملوّن، تماثيل صغيرة من الفخار المزجّج تمثّل حورس وإيزيس وأنوبيس، جعارين من كل الأحجام، تمائم حجرية»). فالفاصلة تقوم مقام .الفعل، والقائمة، بلا ترتيب ولا تراتب، تحاكي انتقال الأشياء من يد إلى يد

التجاور، أو غياب «لأن». لا ترد كلمة «لأن» ولو مرة واحدة في الفصول الأربعة، و «إذن» تكاد لا ترد. ويُقرأ الرابط المنطقي بين جملتين لا في أداة ربط. «لم يعد هناك بريد منتظم منذ أبو قير. كتبها مع ذلك.» تجاور بين سبب عدم الكتابة وواقعة الكتابة، و«مع ذلك» تقوم بعمل الاستدراك كان يبحث عنها مع ذلك. كانت تلك طريقته في الخوف.» تضع السبب بعد النتيجة دون أن تقدّم نفسها تفسيرًا. ويمنح الأسلوب الحكايةَ جفاف» المحضر، ويترك للقارئ أن يستنتج.

ما... هو أن... التركيب الذي يشطر الجملة شطرين، بـ«ما» أو «الذي» في الصدر ثم «هو أن» أو «كان» لتقديم المعلَن عنه، هو الصورة المفضلة لدى الراوي. وهو يخدم خصوصًا قول ما لا تراه الشخصية أو لا تقوله أو لا تترجمه («ما لم يترجمه كان النبرة»، «ما لم يستطع مونج رؤيته من داخل المربع، كان الضباط الراكبون يرونه»). فالمعلَن عنه لا يُسمّى في البداية، بل يُحجب ثم يُقدَّم، وشكل الجملة يعيد إنتاج المعلومة المنسحبة. إنه أسلوب تشويق يُحسن تهيئة أثر الكشف. ويُستعمل التركيب نفسه في الحصائل. ففي الخاتمة يقابل بين ما احتفظت به فرنسا وما أخذته («ما احتفظت به فرنسا حقًّا من مصر كان مئة وسبعة وستين عقلًا وأربعًا وتسعين وثمانمئة لوحة أنتجوها»).

> *«أما ما لم يقله جومار — وما لم يقله لأحد منذ مغادرة الإسكندرية — فهو أن الفرضية كانت ترعبه بقدر ما كانت تُحمّسه.»*

الفصل الرابع، القسم 5 — العبور.

الطباق والتصحيح دون «لكن». تجاور عدة حِكَم نفيًا ونقيضه بنقطة بسيطة («لم يكن طللًا. كان جارًا.»). وجملة دونون في يومياته («نحن نجمع لباريس. وهم ينهبون لأنفسهم.») تقوم على جملتين من قالب واحد، لا يتغير فيهما إلا المتمم الذي تدخله «لـ»، أي الوجهة. وطباقه («هم أخذوا ما ظنوه كنوزًا. ونحن نأخذ ما نظنه معرفة.») لا يغيّر إلا الضمير وزمن الفعل والاسم الأخير، فتصير الحركة نفسها نقيضها بانتقال ثلاث كلمات. والجمل التي لا فعل فيها والتي تبدأ بـ«لا» («لا القيمة. ولا الأهمية التاريخية. بل الوزن.») تُمهّد للإثبات بسلسلة من الرفض، ويقف التدرج عند كلمة واحدة.

التوازي والتكرار والحذف. يحب النص الجمل المتناظرة التي يتعاقب فيها الفاعلون على فعل واحد. فجملة «نهب الرومان المعابد ليبنوا، ونهب العرب المباني الرومانية» تسرد الشعوب كما تُقلَّب صفحات تسلسل زمني، إذ يتسلّم كل فاعل جديد الفعل نفسه. أما التكرار فيُحدث الأثر المعاكس، أي انقباضًا عاطفيًّا. يبحث جومار بنظره عن الجندي الذي كان يحمل قطًّا من الخزف ولا يجده، ثم يتسلم التكرار الاستهلالي الجملة («الرجل موجود. والقط موجود. في مكان ما داخل رقم الألفين والخمسمئة هذا»). فالجملتان المتطابقتان شكلًا تؤكدان وجودًا كان الرقم قد جرّده.

جملة السلطة. يتكلم الأقوياء بجمل قصيرة وبصيغ الامتناع. «سيكفي الاحتلال. لما أريد أن أفعله.» تستعمل مصدرًا فاعلًا، مما يُلغي كل فاعل، ثم تترك المضمون الحقيقي في جملة صلة بلا سابق. ويصبح الفعل «استطاع» فعل رفض. يستعمله بونابرت ليبرئ نفسه («ما يأخذه الجنود في حقائبهم لا أستطيع منعه»)، ويجيب هاميلتون فورييه بالطريقة نفسها («لا أستطيع أن ألزم القرن المقبل»). فالعجز المعلَن لدى أصحاب السلطة هو الشكل النحوي للتنصل من المسؤولية. وتُضبط تفرقة بونابرت بين فرنسا والجنود كذلك بحساب أفعال، ثلاثة لفرنسا وواحد للجنود.

> *«فرنسا لا تنهب. إنها تنتقي وتوثّق وتحفظ. الجنود هم الذين ينهبون.»*

الفصل الثاني، القسم 1 — بونابرت، إلى دونون.

علامات الترقيم والحوار. نقاط الحذف، وجميعها تقريبًا في الحوارات، تحلّ في لحظة الاعتراف («أراضيهم، وتماثيلهم...»). والتعجب نادر حتى يلفت النظر، ومحجوز لحماسة العلماء («المشكلة نفسها يا أصدقائي، نفسها!»). وتأتي الجملة الاعتراضية عبر الشرطة، التي تحمل معرفة الراوي إلى جملة الشخصية («أما ما لم يقله — وسيصوغه بعد سنوات في ملاحظاته عن الوصف — فهو أن هذا الاختلال»). وفي الحوارات يكون فعل القول في الغالب «قال»، وكثيرًا ما تقطع الجملة الاعتراضية الجواب بعد مقطعه الأول («وماذا عن مجموعاتنا؟ قال جوفروا. كيف ستعود هي؟») فيوضع الفاعل في الصدر ثم يُستأنف بـ«هي»، كما يتكلم الناس.

إيقاع التأريخ. في مشاهد الحركة ينتقل السرد إلى الماضي البسيط ويقصّر جمله حتى العدّ التنازلي. «هجموا بأقصى سرعة على مدى ثلاثمئة متر وانتظر مربع ديزيه. مئتان وخمسون مترًا.» تُقاس الهجمة بالأمتار، كما يُقاس كل شيء في هذا الكتاب، والشذرة الأخيرة، بلا فعل، تُسمِعنا انتظار المربعات أفضل من أي تعليق.

نبرة متحفظة. يتجنب الراوي النعت العاطفي. وتمرّ العاطفة عبر التفصيل والتوقف والحركة. ففي العودة إلى طولون يرد أن جوليوا «لم يقبّل الأرض»، وهذا الامتناع عن حركة منتظرة يقول حاله أفضل من جملة مشاعر. وحين يشتد الألم يتخذ شكل معاينة («لم يكن الرقم على الصفحة يزن شيئًا. ومع ذلك كان يشير إلى ألفين وخمسمئة غرض»)، حيث يذكّر التضاد بين «لم يكن يزن شيئًا» و«ومع ذلك كان يشير» بقانون الوزن الذي يحكم الكتاب كله.

التخفيف بالنفي والسخرية. سخرية الراوي خفية، وتمر عبر التخفيف بالنفي والاستدراك. فبعد حصيلة لندن وباريس، يمكن أن تُقرأ عبارة «لم يكن العزاء هيّنًا» في الاتجاهين. وتوصف إجابة هاميلتون لفورييه بصفتين تفصل بينهما نقطة («كان صادقًا. وكان أيضًا غير كافٍ.»)، فتنزع الثانية

،عن الأولى كل قيمتها تقريبًا. واعتراف دونون («وهنا نشبههم») يستعمل الآلية نفسها، أي مقارنة تُقال بصوت خافت. وهكذا تبقى النبرة نبرة الاتزان .التي توحي أكثر مما تدين

الحكمة والخاتمة واللازمة. تتخذ الحكمة القصيرة، الموضوعة في ختام الفقرة، ثلاثة أشكال هي التصحيح والتضاد والاختصار («التماثيل كانت في لندن. والمعرفة كانت في باريس.»). وعودتها المنتظمة تمنح الكتاب قوة الحفظ وتكون له توقيعًا. إنها تعمل كلازمة، لكنها تقترب من التكلف، كما .تلاحظ حدود الفقرة 11

6. الكتابة كي لا ننسى — دفاتر ورسائل ونُسخ

تكاد كل الشخصيات تكتب. يمسك دونون يومياته، وجومار دفاتره، ومارسيل سجله، وفوروبيه مقدمته. وتجعل الرواية من الكتابة جوابًا عن الخسارة .المعلنة، ومن النسخ فعلًا أخلاقيًّا بقدر ما هو تقني

.وعبارة «النسخ... هي الغنيمة الحقيقية» تختزل هذه الفكرة. وهي تمهّد أيضًا للسخرية الأخيرة، إذ إن ما أُنقذ هو ما كانت تتسع له لفافة

7. صوت الآخر، بالوساطة — المترجم والكلام المنقول

يتكلم المصريون في الغالب بواسطة حسن أو مترجم آخر. والشكل الغالب هو الكلام المنقول («يقول إن...»، «يقول إنه يفهم»). وهذا الأسلوب .صورة، لأنه يُشعر بأن صوت الآخر لا يُسمع مباشرة

أدلّ المقاطع هو الذي يطلب فيه محمود الطويل أن يُسجَّل اسمه، بعد أن رُفض ردّ تماثيله الصغيرة إليه. ابنه هو الذي يترجم، وينجح الطلب. إنها .إحدى اللحظات النادرة التي ينال فيها صوت مصري أن يُسجَّل

> *«يقول إنه يفهم. ويقول سجّلوا اسمي مع ذلك.»*

الفصل الرابع، القسم 3 — أخلاقيات السلب.

،«...الانتقال من الكلام غير المباشر إلى المباشر هو الأثر النحوي المركزي في المشهد. يتكرر الفعل «يقول» ثلاث مرات في جملتين («يقول إن يقول إنه يفهم»، «ويقول سجّلوا اسمي مع ذلك»)، ثم تخرج الجملة الأخيرة من الكلام غير المباشر. فالأمر «سجّلوا» لا يُنقل إلى الغائب كما تقتضي» القاعدة، ولا تحيط به علامتا اقتباس. وكلام التاجر يعبر الوساطة في اللحظة التي كان الشكل المنقول يُبقيه فيها بعيدًا. و«مع ذلك»، التي تدل على الاستدراك، تقول في كلمتين إصرار من لم ينل شيئًا. وتسمّي الرواية أيضًا ما تحذفه الوساطة. ففي الفصل الأول، كان حسن قد ترجم جملة الفلاح .«بدقة، و«ما لم يترجمه كان النبرة

8. المادة والحركة — أحجار وأيدٍ وضوء

تنتبه الرواية إلى المواد، من الغرانوديوريت إلى البردي، ومن الطمي إلى الراتنجات والنطرون. والأيدي (أيدي النسّاخين والنسّاجين والقائمين على .الري) موضع معرفة فيها. وعبارة «أن اليدين تعرفان» تقيم معرفة جسدية لا تملكها المعاهد

.يعمل الضوء علامةَ ترقيم، بمصابيح السهر وفجر النيل وليلة الجيزة. وهو يرسم دخول المشاهد وخروجها ويعطي الحكاية نَفَسها

9. الراوي العليم — الاستباق وسجل التأريخ

يتجاوز الراوي وعي شخصياته. فيعلن مسلّة الكونكورد وبردية كاديه وسد أسوان، ويمنح المشهد عمقًا تاريخيًّا. وتُدرج هذه الاستباقات النص في .ذاكرة الاستردادات الراهنة، دون أن تسمّيها قط

في معركتي أبو قير وهليوبوليس يغيّر السجل ويتخذ نبرة التأريخ، بجمل أقصر وتواريخ ووقائع. ويدل هذا التحول على أن التاريخ العسكري ليس .هو الموضوع، وأن المشهد الحقيقي يدور في مكان آخر

أزمنة السرد هي أزمنة الخلفية والمستقبل. يهيمن على السرد الماضي الناقص، الذي يمسك الديكور والعادة والجرد، بينما يدل الماضي البسيط، النادر جدًّا، على الفعل الوجيز («كتبها مع ذلك»). وأزمنة الاستباق هي أزمنة المستقبل في الماضي. «ستموت على متن سفينة» تستعمل الصيغة الشرطية لتترك الشخصية في حاضرها بينما تكشف للقارئ ما ينتظرها. وتكثر هذه الصيغة في الفصل الرابع، حيث يتركز المستقبل (المسلّة التي «ستُقام في ساحة الكونكورد عام 1836»، وخصومة جوفروا وكوفييه). و«أما بالنسبة إلى دونون، في اللوفر، فلم يكن العمل قد بدأ إلا للتو. كانت الحملات ستُستأنف» تستعمل ماضيين ناقصين، ثانيهما تعبير مركب من «كان + سـ + فعل». والحصر «لم... إلا» يقول في آن واحد قِصَر ما جرى واتساع .ما هو آت. وفي الجملة الأخيرة («ومع الحملات، المجموعات») لا فعل، والعطف البسيط يجعل المجموعات تابعة للحملات

10. الإيقاع والسهرات والبنية العامة

كثيرًا ما تُختم الأقسام على حركة أو صمت أو انتظار (وفي النهاية على مصباح وكوكبة الجبار)، ويتقدم السرد على مراحل. ويتأرجح الإيقاع بين مشاهد طويلة (دندرة، عشاء هاميلتون) واختصارات تأريخية (حملة سوريا)، مما يدرأ عن الجرد رتابته.

البنية دائرية. تنفتح الرواية على رصيف طولون وتنغلق في باريس، حيث يستأنف جوليوا شرح الكرنك تحت الجبار نفسه الذي كان فوق الأهرام، ثم يُختم الجزء على بونابرت ودونون. والنهاية تبقى مفتوحة. «أما بالنسبة إلى دونون، في اللوفر، فلم يكن العمل قد بدأ إلا للتو. كانت الحملات ستُستأنف».

11. حدود أسلوبية

- الكلام المنقول، وهو خيار مقصود، يُبقي الأصوات المصرية بعيدة، وعودته بالشكل نفسه تقلّل من تنوع الجملة.
- الحكمة الختامية، الموضوعة غالبًا في آخر الفقرة، تصير أسلوبًا متوقعًا وتقترب من التكلف، لأن بعض المشاهد تُختم على صيغة سبق للقارئ أن خمّنها.
- يبقى معجم الأخذ ضيقًا جدًّا، وتتكرر «أخذ» و«نهب» و«جمع» باستمرار. وهذا التكرار يصنع قوة الأطروحة، لكنه يقلل تنوع الكلمات أمام ظاهرة تقبل أسماء أخرى كثيرة. كما تستعمل الرواية صفات التقدير في أضيق الحدود، مما يحفظ الجفاف لكنه يحرم الموصوف من لونه الخاص.
- وحذف الفعل، الحاضر بكثرة في الردود، ينتهي إلى منح العلماء والجنرالات والتجار نبرة واحدة، مع أن مواقعهم متعارضة. وغياب «لأن» و«إذن» يجعل حجاج الشخصيات كذلك أكثر تماثلًا مما ينبغي.

خاتمة

يقوم الجزء الثاني من النهب الكبير على كتابة استقصاء تعدّ وتقيس وتقتبس وتصحّح. وأول مزاياه الانسجام بين الشكل والمقصد، إذ الجرد هو الموضوع والمنهج معًا. ويؤكد ذلك مسح النص كله على مستوى الكلمة والجملة. فالمعجم يدور حول فعل بلا بريق، «أخذ»، وينزلق من الرسم إلى الصندوق. ويحذف التركيب الروابط المنطقية، ويكثّر من الشذرات بلا فعل، ويخص تركيب «ما... هو أن...» بما يفلت من الشخصيات. وتؤدي الحكمة، الكثيرة، دور اللازمة، ويبلغ الكتاب أفضل حالاته حين يترك الأشياء والصمت يتكلمان.

> *«ليست مصر هي التي دعتنا».*

الفصل الرابع، القسم 3 — جوفروا، في عشاء هاميلتون.